

تعقيب

للأستاذ أنور المعداوي

مشكلة الأداء النفسي في الشعر العربي :

مشكلة الأداء النفسي في الشعر مشكلة تهم الشعراء المحدثين ، وتهم النقاد المحدثين ، وتهم القراء المحدثين . تهمهم جميعاً لأن نظرة الشاعر إلى النفس والحياة قد تفاوتت بين أمس واليوم ، وكذلك نظرة الناقد ونظرة القارئ ... ويلاحظ هنا أنني أقصر الحديث على الشعر العربي وحده دون سواه .

إن رأيي في الشعر العربي القديم هو رأيي في مشكلة الأداء اللفظي في هذا الشعر ، وهي مشكلة شغلت الشعراء القديما فأفرغوا فيها كل طاقاتهم الشعرية لا الشعرية ، وشغلت النقاد القديما فأقاموا موازينهم للألفاظ من حيث الدلالة المادية لا النفسية ، وشغلت القراء القديما لأن فهمهم للشعر قد استمد أسباب وجوده مما بين أيديهم من نتائج شعري يسير في ركابه النقد الموجه لهذا النتاج ... إذا قلت لك إن الشعر العربي القديم كان في جلته شعر « للسطوح الخارجية » للنفس والحياة ، فلا تحمل هذا القول على التعصب للحديث والوقوف إلى جانبه . إن أملك هذا الشعر ، فراجع فيه نفسك ، واستشر في حقيقته ذوقك وحسك ، إنه شعر يشترك بفراع « الوجود الداخلي » عند قائله ، لأنهم كانوا يعيشون خارج « الحدود النفسية » في الكثير الغالب من الأحيان ، فإذا عادوا إلى تلك الحدود فتخلبوا على مشكلة « الصدق الشعري » قامت في وجوههم مشكلة أخرى هي مشكلة « الصدق الفني » ... وهنا مفرق الطريق بين المشكلتين الرئيسيتين : مشكلة « الأداء النفسي » ومشكلة « الأداء اللفظي » ، في معرض الموازنة بين الشعر العربي الحديث والشعر العربي القديم .

وأحب هنا أن أوضح الفوارق بين هذه القضايا الفنية في حدود التعبيرات الاصطلاحية والنقدية ... فإنا هو الصدق الشعري أولاً ، وما هو الصدق الفني ثانياً ، حتى نستطيع أن نصل إلى الهدف

الأخير حول مشكلتي الأداء في الشعر ؟

الصدق الشعري هو ذلك التجاوب بين الوجود الخارجي التأثير للانفعال ، وبين الوجود الداخلي الذي ينصهر فيه هذا الانفعال . أو مرتكز الشراقة العاطفية التي تندلع من التقاء تيارين : أحدهما نفسي متدفق من أعماق النفس ، والآخر حسي منطلق من آفاق الحياة . أو هو ذلك التوافق بين التجربة الشعرية وبين مصدر الإثارة العقلية في مجال الرصد الأمين للحركة الحائشة في تنابؤ الفكر والوجدان ... هذا هو الصدق الشعري ومبدأه الإحساس ، أما الصدق الفني فيدانه التعبير ؛ التعبير عن واقع هذا الإحساس تعبيراً خاصاً يبرزه في صورته التي تهز منافذ النفس قبل أن تهز منافذ السمع ، وهذه هي التجربة الكبرى التي تختلف حولها لتقيم الفنية للشعر في معرض التفرقة بين أداء وأداء .

هناك شاعر يملك الصدق في الشعر ولا يملك الصدق في الفن ، لأنه لم يؤت القدرة على أن يلبس مشاعره ذلك الثوب اللامع من التعبير ، أو يسكن أحاسيسه ذلك البناء المناسب من الألفاظ ، ولا مناص عندئذ من الإخفاق في إظهار العاطفتين معاً : الشعرية والشعرية ... وهنا يأتي دور الأداء النفسي في الشعر ، وهو الأداء الذي يعتمد على اللفظ والجو الموسيقي : اللفظ ذو الدلالة النفسية لا المادية ، اللفظ ذو الظلال الموحية لا الظلال الجامدة ، اللفظ الفني يتخطى مرحلة إشباع الحسني الجزئي الواحد إلى مرحلة إشباع الحسني الكلية المتناخلة .

هذا هو مكان اللفظ من الأداء ، أما الجو فتقصد به ذلك الأتق الشعري الذي ينفك بصدقه إلى مكان الفن وزمانه ، ويحقق لك تلك المشاركة الوجدانية بينك وبين الشاعر ، ويحدث لك نفس الهزات الداخلية التي تلقاها وهو في حالة فناء شعوري كامل مع « الوجود الخارجي » .

ويبقى بعد ذلك عنصر التنظيم في مشكلة الأداء ، وهو عنصره خطره البعيد وأثره الملحوظ في تكوين الانفعالات القاتية في التعبير . وهنا يبدو الارتباط كاملاً بين العناصر الثلاثة ، لأن « الحقل الشعري » ممثلاً في عنصرى الألفاظ والآجواء لا فني له بحال من عنصر « الموسيقى التصويرية » التي تصاحب « المشهد التصويري » في كل قلة من قلات الشعر ، وكل رتبة من رتبات الخيال .

حسبنا أن نقول إن الشعراء المحدثين قد خطوا بفهمهم لأسول الفن الشمرى خطوات جديدة ، ووثبوا بالأداء النفسى وثبات أقل ما يقال فيها إنها ردت للألفاظ قيمها التبريرية حين ردتها إلى عاريها النفسية فندت وهى ملحوت شمر ووجدان. ويحتمل أن النقد الحديث أن يقول إنه قد وجد ضالته فى هذا الشر الذى وجد نفسه ... وإذا قلنا الشعر العربى الحديث ، فإنما نقى ذلك الشر الذى بدأت مرحلته الأولى بتلك المدرسة من بعض شعراء الشيوخ وعلى رأسهم « شوقى » ، وبدأت مرحلته الثانية بتلك المدرسة الأخرى من بعض شعراء الشباب وعلى رأسهم « إيليا أبرامى » ، وفى شعر هذين الشاعرين تبدو ومضات الأداء النفسى أكثر لما نأخذ منها فى شعر الآخرين .

وقد قدمت إلى القراء نقداً تحليلياً لمشكلة الأداء النفسى فى الشعر ، وبقى أن أقدم إليهم نموذجاً كاملاً لهذا الأداء ، حتى تتكشف لهم جوانب ذلك النقد على ضوء هذا المثال ، وهو قصيدة للشاعر إيليا أبرامى ، وقمت عليها دون أن أعمد إلى شيء من الاختيار ... عنوان القصيدة « وطنى » ، وبنائها هذه الأبيات :

وطن النجوم ... أنا هنا حدثى ... أئذى من أنا ؟
ألمحت فى الماضى البعيد فتى غريباً أرعنا
جذلات يرح فى حقوك كالنسيم مدندنا
للقتى للملوك ملعبه وغير الفتى
يتعلق الأشجار لا ضجراً يحس ولا وى
ويورد بالأعصاب يربها ميوفاً أو تنا
ويخوض فى وحل الشتاء مهلاً متينا
لا يبقى شر البيوت ولا يخاف الألسنا
ولكم شيطان كى يدور القول عنه : شيطاننا !

أنا ذلك الولد الذى دنياه كانت هاهنا
أنا فى مياهك قطرة فاضت جداول من سنى
أنا من زبابك ذرة ماجت مواكب من مى
أنا من طيورك بلبل غنى بمجدك فافتى
حمل الطلاقة والبشاشة من وجهك لدنى

ويظهر أثر الربط بين هذه القيم فى مشكلة الأداء النفسى حين نلتبس ذلك التناقض بين فنون الشعر المختلفة ... إن لكل فن من هذه الفنون طابعه الخاص المتميز فى مجال التصوير الفنى عن طريق اللفظ والجو والموسيقى ؛ فن أسباب الإخلال بالأداء النفسى أن تتغير اللفظ المأس ، والجو الهادى ، والموسيقى الحائلة مثلاً فى شعر الملاحم ، وأننعكس القضية من وضع إلى وضع فتتغير اللفظ الهادى ، والجو المأس ، والموسيقى المأسعة مثلاً فى شعر النزل والرائاء !

ترك هذا التحديد لكل تلك القضايا الفنية لنقول إن أصحاب الشعر العربى القديم لم يفتنوا إلى قيم الأداء النفسى فى الشعر إلا فى القليل النادر الذى لا يحسب له حساب ... وإذا كانت هناك ومضات من هذا الأداء تطلعت فى هذا الشعر ، فهى ومضات متفرقة يصعب أن تجمع بينها لتخرج من هذا الجلب برصيد يمكن أن ينسب إلى شاعر واحد ، لتتعلق من شخصيته الشعرية قوة من قيم الأداء النفسى ! مصدر الداء أنهم نظروا إلى مظهر اللفظ أكثر مما نظروا إلى مخبره ، وأنهم شغلوا عن « الذاتية النفسية » بتلك « الذاتية البيانية » ، وأنهم عبروا عن الشمر المصنوع أكثر مما عبروا عن الشمر المطبوع !

على هذا الأساس سار الشعر القديم يبارك خطواته النقد القديم ؛ ذلك لأن الأجيال قد دأبت على أن تخلق أبنائها فى ميدان الفن من طينة واحدة ، وأن تصوغ ملكاتهم من معدن واحد : يقف الشاعر عند « المياكل العظمية » للألفاظ ويقف معه الناقد ، وناية للفن عند هذا وذاك أن يطلب الأول إلى صاحبيه أن يقف لحظات ليصكبا معه ، وأن يشير الثانى إلى أنه قد باغ القيمة لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى ، أو لأنه مثلاً قد وفق إلى تشبيه شينين بشيتين فى بيت واحد !

لا أريد أن أذهب فى القول إلى أكثر مما ذهبت فى هذا المجال ، لأن مشكلة الأداء اللفظى لا تحتاج إلى أن نستخلص لها الشواهد من الشعر العربى القديم ، ولأن تلك الشواهد قد مر بها القراء والأدباء فى مطالعهم لقلبك الشعر ، وهى بعد ذلك أوضح فى حساب الكثرة من أن يشار إليها أو يجمع فى حساب التسجيل والإحصاء !

